

فصلٌ في تعلم الأدب وحسن السمة والسيرة والمعاصرة والاقتصاد [ويُسَمِّنُ أَنْ يُتَعَلَّمُ الْأَدَبُ وَالسَّمَّةُ وَالْحَيَاةُ وَحُسْنُ السِّيَرَةِ شَرْعًا وَعُرْفًا] قال أحْمَدُ: ثَنَا حَسَنٌ ثَنَا زُهيرٌ ثَنَا قَابُوسُ بْنُ أَبِي طَبَيَّانَ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ الْهَدِيَ الصَّالِحَ وَالسَّمَّةَ الصَّالِحَ وَالاِقْتِصَادَ جُزُءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعَشْرِينَ جُزُءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» قَابُوسُ مُخْتَلِّ فِيهِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاؤِدُ عَنْ النَّفِيلِيِّ عَنْ زُهيرٍ قَالَ فِي النَّهَايَةِ: «الْهَدِيُ السِّيَرَةُ وَالْهَيْئَةُ وَالطَّرِيقَةُ» وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْخَلَالِ مِنْ شَمَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْ جُمْلَةِ خَصَالِهِمْ وَأَنَّهَا جُزُءٌ مَعْلُومٌ مِنْ أَجْزَاءِ أَفْعَالِهِمْ. وَهَذَا الْخَبَرُ فِي الْمُوْطَأِ وَلَفْظُهُ «الْقَصْدُ وَالْتُّوْدَةُ وَحُسْنُ السَّمَّةِ» وَذَكْرُهُ. وَرَوَاهُ التَّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ إِسْنَادٌ جَيْدٌ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَفِيهِ «جُزُءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعَشْرِينَ جُزُءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» وَتَرْجَمَ أَبُو دَاؤِدَ عَلَى الْحَدِيثَيْنِ الصَّحِيحَيْنِ الْمُشَهُورَيْنِ قَوْلَ أَنَّسٍ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا مَشَى كَانَهُ يَتَوَكَّلُ، وَبِالضَّمْنِ جَمْعٌ صَبَبَ أَيْ فِي مَوْضِعٍ مُنْهَدِّرٍ، وَقِيلَ: الصَّبَبُ وَالصَّبُوبُ تَصُوبُ نَهْرًا أَوْ طَرِيقًا. وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخْعَنِيِّ قَالَ كَانُوا إِذَا أَتَوْا الرَّجُلَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ سَمْتَهُ إِلَى صَلَاتِهِ وَإِلَى حَالِهِ ثُمَّ يَأْخُذُونَ عَنْهُ وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْ جَمَاعَةٍ وَإِيَّاكَ. وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِلسَّائِلِ ذَلِكَ وَرَوَى الْلَّفْظَ الْأَوَّلَ عَنْهُ جَعْفُرُ وَالثَّانِي الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ وَرَوَى الْخَلَالُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ لَا تَقُولُوا لِلسَّائِلِ يُورُكَ فِيكَ فَإِنَّهُ قَدْ يَسْأَلُ الْكَافِرَ وَالْمُسْلِمَ وَلَكِنْ قُولُوا رَزَقَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ. وَعَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ إِذَا ذُكِرَ أَحَدٌ عِنْهُ فَدَعَا لَهُ بَدَا بِنَفْسِهِ» إِسْنَادٌ جَيْدٌ رَوَاهُ أَبُو دَاؤِدَ وَالنَّسَائِيُّ وَالْتَّرْمِذِيُّ وَالْلَّفْظُ لَهُ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «إِبْدَا بِنَفْسِكَ» وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي أَمْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَقَالَ أَبُو دَاؤِدَ فِي بَابِ الْأَدَبِ: كَتَبَ أَحْمَدَ مَعِي كِتَابًا إِلَى رَجُلٍ فَأَمَرَنِي الرَّجُلُ فَقَرَأَهُ فَكَانَ فِيهِ وَكَفَانَا وَإِيَّاكَ كُلُّ مُهُمٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ذَكَرَ فِي شِرْحِ مُسْلِمٍ قَوْلَهُ «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى» إِنَّهُ يُسْتَحْبِطُ تَقْدِيمُ نَفْسِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ وَأَنَّ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا الْمُسْتَحَبُ تَقْدِيمُ غَيْرِهِ وَإِيَّارُهُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: «وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهِهِ» [الضَّحْيَ: 10] قِيلَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ الْمُرَادُ بِهِ سَائِلُ الْبَرِّ وَالْمَعْنَى: لَا تَنْهِهِ إِمَّا أَنْ تُعْطِيهِ وَإِمَّا أَنْ تَرْدِهِ رَدًا لِيَنَا قَالَ أَبُنُ الْجَوَزِيِّ وَالْبَغْوَيِّ: يُقَالُ نَهَرُهُ يَنْتَهِ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ بِكَلَامٍ يَزْجُرُهُ أَنْتَهَى كَلَامُهُمَا فَهَذَا الْمُرَادُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. أَمَّا لَوْ رَدَهُ بِلِينٍ فَلَمْ يَقْبِلْ وَأَلْحَ كَفِيلُ بَعْضِ السُّؤَالَ سَقَطَ أَحْرَامُهُ وَيُوَدُّ بِأَطْفَ بِحَسَبٍ مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ وَالْمَصْلَحةُ ثُمَّ قَدْ يُقَالُ هُوَ أَوْلَى مِنْ تَرْكِهِ وَالصَّبَرِ عَلَيْهِ، لَا سِيمَاءِ إِنْ قَالَ أَوْ فَعَلَ مَا لَا يَنْبَغِي لِمَا فِيهِ مِنْ زَجْرٍ وَتَهْذِيَهِ وَتَقْوِيمِهِ فَهُوَ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ مَعَ إِقَامَةِ الشَّرْعِ فِي عُقُوبَةِ الْمُعْنَدِي وَقَدْ يُقَالُ الصَّبَرُ عَلَيْهِ أَوْلَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ. لَا يَدْخُلُكَ ضَجْرَةً مِنْ سَائِلٍ . فَلَخَيْرُ دَهْرٍكَ أَنْ تُرَى مَسْؤُلًا لَا تَجْهَنَّ بِالرَّدِّ وَجْهَهُ مُوْمَلٌ . فَبَقَاءُ عِزَّكَ أَنْ تُرَى مَأْمُولاً وَتَرَى الْعُبُوسَ عَلَى الْلَّئِيمِ ذَلِيلًا وَاعْلَمُ بِأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ صَائِرٌ . خَبَرًا فَكُنْ خَبَرًا يَرُوقُ جَمِيلًا وَيَقُولُ لِلْمُسَافِرِ سَفَرًا مُبَاحًا: أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ وَزَوْدَكَ اللَّهُ التَّقَوْيَ. وَقَالَ صَالِحٌ لِأَيْهِ: الْمَرَأَةُ تَقُولُ لِأَيْهَا: اللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ». وَرَوَى أَبُو دَاؤِدَ وَالْتَّرْمِذِيُّ عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْهُ قَالَ «أَسْتَاذَنْتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْعُمْرَةِ فَأَذِنَّ وَقَالَ: لَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ فَقَالَ: كَلِمَةً مَا يَسْرُنِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا». وَفِي رَوَايَةِ قَالَ: «أَشْرَكْنَا يَا أَخِي فِي دُعَائِكَ». وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ» رَوَاهُ أَبُو دَاؤِدَ وَالْتَّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ وَزَادَهُ: «عَلَى وَلَدِهِ» وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَلَفْظُ أَبْنِ مَاجَهَ لَوْلَدِهِ وَأَبُو جَعْفَرٍ تَفَرَّدَ عَنْهُ يَحْيَى. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبْنِ مَاجَهَ وَالْتَّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ قُلْتَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَمْ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ؟ قَالَ: «مِنْ الْمَاءِ». وَقَرَأَتْ عَيْنِي، فَأَنْبَيْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ حَلْقَ مِنْ مَاءٍ» إِسْنَادٌ جَيْدٌ. وَعَنْ أَبْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ أُوْدَعُكَ كَمَا «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُوَدِّعُنَا فَيَقُولُ: أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ» رَوَاهُ أَبُو دَاؤِدَ وَالْتَّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ. وَرَوَى أَبُو دَاؤِدَ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيْحٍ مَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ الْخَطْمِيِّ الصَّحَافِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَجَرَى ذَكْرُ الدِّينِ مَعَ الْوَدَاعِ؛ لِأَنَّ السَّفَرَ قَدْ يَكُونُ سَبِيلًا لِإِهْمَالِ بَعْضِ الْأَمْوَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالدِّينِ فَدَعَا لَهُ بِالْمَعْوِنَةِ وَالْتَّوْفِيقِ فِيهَا. ذَكَرَ ذَلِكَ الْخَطَابِيُّ وَغَيْرُهُ. «وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا فَزَوَّدَنِي قَالَ: زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّنْقُوَيْ قَالَ: وَغَفَرَ ذَنْبَكَ قَالَ: زَنْبِي قَالَ: وَيَسِّرْ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُ مَا كُنْتُ. وَقَالَ أَبْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ بِهْجَةِ الْمَجَالِسِ: إِذَا خَرَجَ أَحَدُكُمْ إِلَى سَفَرٍ فَلَيُوَدِعْ إِخْوَانَهُ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ فِي دُعَائِهِمْ بَرَكَةً قَالَ: وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: السُّنْنَةُ إِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ سَفَرٍ أَنْ يَأْتِيَهُ إِخْوَانُهُ فَيُسْلِمُونَ عَلَيْهِ، وَإِذَا خَرَجَ إِلَى سَفَرٍ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيُوَدِعُهُمْ وَيَغْنِمُ دُعَاءَهُمْ. وَقَدْ قَيلَ: فِرَاقُكَ مِثْلُ فِرَاقِ الْحَيَاةِ . وَفَقْدُكَ مِثْلُ افْتِنَادِ الدِّينِ وَقَيلَ: عَلَيْكَ السَّلَامُ فَكُمْ مِنْ وَقَا. أَفَارِقُ مِنْكَ وَكَمْ مِنْ كَرْمٍ وَقَيلَ: لَمْ أَنْسِ يَوْمَ الرَّحِيلِ مَوْقِفَهَا . وَطَرَفُهَا فِي دُمُوعَهَا غَرَقَ وَقَولَهَا وَالرِّكَابُ وَاقْفَةً . تَنْرُكِي هَكَذَا وَتَنْتَلِقُ لِسْسَ شَيْءٌ مِنْ الْفِرَاقِ وَإِنَّ كَانَ . يُرِيدُ الرُّجُوعَ مُنْصَرِفًا وَقَيلَ: وَكُلُّ بَعْرَتِهِ مُفْلِسٌ لَئِنْ رَجَعَتْ عَنْكَ أَجْسَامُنَا . لَقَدْ سَافَرَتْ مَعَكَ الْأَنْفُسَ وَقَيلَ: يَا رَاجِلُ الْعِيسَى عَرَجْ بِي أَوْدَعَهُمْ . يَا رَاجِلُ الْعِيسَى فِي تَرْحَالِكَ الْأَجْلُ يَا لَيْتَ شَعْرِي

لِطُولِ الْعَهْدِ مَا فَعَلُوا صَاحِبُ الْغَرَابُ بِوَشْكِ الْبَيْنِ فَارْتَحَلُوا . وَقَرِيبُوا الْجِئْسَ قَبْلَ الصُّبْحِ وَاحْتَمَلُوا وَغَادَرُوا الْقَلْبَ مَا تَهْدَى لَوَاعِجهُ .  
أَيْدِي النَّوَى بِذِنَادِ الشَّوْقِ إِذْ رَحَلُوا مِنْهُ وَظَلَّ مُفْكَرًا مُتَحَبِّرًا سَفَرْ وَحْقًّا لَهُ يَأْنِ يَتَطَيَّرًا وَدَعَ أَعْرَابِيًّا رَجُلًا فَقَالَ: كَيْتَ اللَّهُ لَكَ كُلَّ عَدُوٍّ  
إِلَّا نَفْسَكَ، وَجَعَلَ خَيْرَ عَمَلِكَ مَا وَلَيَ أَجَلَكَ قَالَ الشَّاعِرُ: وَكُلُّ مُصَبِّبَاتِ الزَّمَانِ وَجَدْتُهَا . وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}  
[الزخرف: 13] {وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [الزخرف: 14] . اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبَرَّ وَالْتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تُحِبُّ  
وَتَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوَنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْرُ عَنَّا بُعْدَهُ،